

قبل خمسة عشر عاماً، كان كافياً أن تطأ قدما رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها، أرييل شارون، باحات المسجد الأقصى، لتندلع انتفاضة فلسطينية استشهد خلالها نحو خمسة آلاف فلسطيني وجرح واعتقل عشرات الآلاف من الفلسطينيين، وبعد كل هذه السنوات بات اقتحام الأقصى اليوم من قبل قادة الاحتلال وجنوده أمراً شبه يومي، وبدل الانتفاضة العارمة في كل الأراضي المحتلة، يقتصر الأمر على مقاومة محدودة للدفاع عن الأقصى بما تيسر من مرابطين ومصلين. وتبدو المفارقات صارخة بعد كل هذه السنوات، إذ تبنى الرئيس الفلسطيني الراحل، ياسر عرفات، انتفاضة الأقصى وسارع إلى دعم "كتائب شهداء الأقصى" الذراع العسكرية لحركة "فتح"، وبات عرفات رمزاً للانتفاضة التي انتهت عملياً بوفاته مسموماً نهاية عام 4002، قبل أن يُبرم خليفته، محمود عباس، اتفاقاً في شرم الشيخ مع شارون عام 2005 ينهي فيه الانتفاضة ويعلن عن حل "كتائب الأقصى"، ويمنع العمل العسكري ضد الاحتلال. "وصل التنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية والاحتلال مراحل غير مسبوقة، بذريعة تفويت الفرصة على امتداد "حماس" في الضفة" بعد نحو عامين، هز الانقسام الفلسطيني الداخلي بين "فتح" و"حماس" المجتمع الفلسطيني وشق صفوف الشارع، وباتت القبضة الأمنية للسلطة الفلسطينية أكثر حدة من أي وقت مضى، إذ وصل التنسيق الأمني مراحل غير مسبوقة، بذريعة تفويت الفرصة على امتداد "حماس" في الضفة الغربية، لتضرب بذلك السلطة كل معاقل المقاومة من أقصى اليمين إلى اليسار بما فيها حركة "فتح"، وتنتهي أية إمكانية لانتفاضة شعبية أو مقاومة منظمة. قبل أيام فقط، شاهد آلاف الفلسطينيين فيديو لعناصر من الأمن الفلسطيني يعتدون بالضرب على الفتى، محمود رضوان حمامرة، وشقيقه، من بيت لحم جنوب الضفة الغربية المحتلة، في محاولة لصد الشبان عن المشاركة في مسيرة دعت لها الفصائل الفلسطينية، بما فيها حركة "فتح" لنصرة المسجد الأقصى، في إشارة إلى أن الأمن الفلسطيني بات خط الدفاع الأول عن الاحتلال، ويمنع المسيرات التضامنية مع الأقصى. وتنسق العقيدة الأمنية للأجهزة الأمنية الفلسطينية مع قرارات وتصريحات عباس، الذي كرر وعده أكثر من مرة بأنه لن يسمح بانتفاضة ثالثة في عهده، ولعل تصريحاته الأخيرة في جولته الدولية الحالية من فرنسا وروسيا والولايات المتحدة تؤكد ذلك، حين حذر رؤساء الدول الغربية من أن استمرار اعتداءات إسرائيل على المسجد الأقصى ستقود إلى "انتفاضة لا نريدها". وعلى الرغم من تكرار عباس الدائم بأنه لا يريد انتفاضة ثالثة، واجتهاد الأجهزة الأمنية في نزع فتيل أية مقاومة محتملة في الضفة الغربية، يراقب الشارع الفلسطيني، الذي تقطعت أوصاله بسبب ممارسات الاحتلال، الاقتحامات اليومية للمسجد الأقصى، وتصيدي المرابطين بصدورهم العارية لجنود الاحتلال ومستوطنيه، من دون أن يستطيع فعل أي شيء، لتبقى المقاومة مقتصرة على العمل الفردي الذي ستكون عقوبته مضاعفة من الاحتلال وأجهزة الأمن الفلسطينية لاحقاً. وبعد أن كان المقاومون يتصدرون المشهد، باتوا يخفون وراء أسماء مستعارة خوفاً من ملاحقة الاحتلال والأمن الفلسطيني، على الرغم من أنهم يواجهون الاحتلال بصدور عارية، كما فعلوا أمس، الإثنين، عندما كسروا آخر حصار ضرب على المصلى القبلي في المسجد الأقصى والمعتكفين فيه. وكانت المشاهد لما جرى من داخله تعكس وحشية الاحتلال وعنفه، كما يقول أحد المرابطين، وهو من نشطاء الانتفاضة الأولى، ومن جرحى مجزرة الأقصى عام 1990 الناشط الذي اكتفى بلقب "أبو مجاهد"، يقول لـ"العربي الجديد": "حاولنا ما استطعنا حماية مسجدنا، ونجحنا في صددهم، وحين فشلوا لم يجدوا سوى التخريب، خصوصاً قص حديد النوافذ وإلقاء قنابل الغاز والصوت منها داخل المصلى القبلي، لكننا سنعيد بناء وترميم ما خربوه، فالأقصى لن يُقسّم". مرابط آخر، هو الحاج طاهر الشحاتيت، يقول لـ"العربي الجديد"، وهو يجمع بقايا شظايا قنابل الغاز والصوت ويعرضها على مجموعة من المواطنين الفلسطينيين والصحافيين: "إنني لم أر وحوشاً مثلهم، لعنهم الله. هذه هي إسرائيل، وهذا جيشها، نحن هنا وسنبقى هنا، ونتمنى الشهادة في الأقصى، وإذا لم يعجب إسرائيل ذلك فلتفعل ما تريد". اقرأ أيضاً: قوات الاحتلال تنسحب جزئياً من محيط المصلى القبلي بالأقصى إلى جوار هؤلاء وعشرات من المرابطين، وجلهم من كبار السن، وقف مدير المسجد الأقصى، الشيخ عمر الكسواني، وطواقم الحراسة في الأقصى، ومتطوعون من الشبان يزيلون أنقاض ما خربه جنود الاحتلال، فيما كان شبان آخرون يلوحون للمدافعين عن المصلى القبلي ويهتفون بحياتهم. هذا المشهد قال عنه أحد رجال الدين: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى"، ثم انضم إلى رفاق له يجمعون بعضاً من حديد نوافذ الأقصى، وبعض القطع الصغيرة الأخرى من زخارف. ولا يخفي كثيرون قلقهم من أن تتكرر الاعتداءات وأن يستباح الأقصى من جديد في الأيام المقبلة، مع استمرار دعوات الجماعات اليهودية المتطرفة لاقتحامه. وانسحبت قوات الاحتلال أمس من باحات الأقصى، وانكفأ عديدهم وعتادهم إلى خارجه، لكن قناصتهم ظلوا على أسطح البنايات المطلة على المسجد. أما خارج أبواب الأقصى،

فكانت مشاهد المواجهة الحامية لا تزال ماثلة في بابي المجلس، والسلسلة، وهما بابان يفضيان إلى الأقصى، إذ أدت المواجهات في الأقصى وخارجه إلى إصابة العشرات بحالات اختناق وبالرصاص المطاطي، بينهم أربعة صحفيين. تحذيرات من تدمير منشآت الأقصى "الكسواني: قوات الاحتلال تتعمد إحداث أكبر قدر ممكن من التخريب والتدمير" بيدي مدير المسجد الأقصى، الشيخ عمر الكسواني، قلقه إزاء ما تقترفه قوات الاحتلال من اعتداءات على المصلى القبلي، ويتهمها بتعمد إلحاق الأضرار في منشآته الداخلية وإحداث أكبر قدر ممكن من التخريب والتدمير، وتحطيم الأعمدة والزخارف التاريخية من خلال إطلاق الرصاص عليها. وعلى الرغم من أن جنود الاحتلال قاموا على مدى الشهرين الماضيين بأكثر من اقتحام للمصلى القبلي، تخلله تحطيم نوافذه، وتدنيسه وإطلاق الرصاص على المرابطين والمعتكفين داخله، إلا أن ما جرى أمس، الإثنين، من استخدام آلات قص الحديد في تدمير بعض نوافذ المصلى القبلي، وكذلك الترسانات الحديدية المدرعة، ونشر القناصة للمرة الثانية على أسطحه وفي ساحاته، يُعد تطوراً نوعياً في مسلسل الاعتداءات والاقتحامات اليومية، إذ تعمدت قوات الاحتلال إطلاق الرصاص المطاطي وقنابل الصوت والغاز داخل المصلى. بيد أن الكسواني يوضح، في حديث مع "العربي الجديد"، أن حجم الضرر الذي تلحقه هذه الاعتداءات على ما يحتويه المصلى القبلي من زخارف إسلامية، كبير، في وقت لا تزال فيه أعمال الترميم مستمرة وكذلك إعادة تركيب النقوش القديمة التي أتى عليها الحريق الكبير في عام 9691، بفعل اعتداء اقترفه آنذاك اليهودي الأسترالي، مايكل روهان. وكانت الطواقم الفنية من مهندسين معماريين، وغيرهم، قد عملت على مدى الأيام الماضية على إصلاح ما تسببت به الأضرار الأخيرة لاقتحامات جنود الاحتلال للمصلى القبلي، ومع ذلك يبقى الاعتداء على المسجد برمزيته ومكانته التاريخية والعقيدية لدى أكثر من مليار ونصف المليار عربي ومسلم أكثر ضرراً ومساً بقداسة المسجد الأقصى، كما يقول الكسواني. واستخدمت قوات الاحتلال التروس الحديدية في اقتحام المصلى القبلي لأول مرة، ويصف أحد مسؤولي الحراسة في الأقصى، في حديث مع "العربي الجديد"، ما جرى بأنه أشبه بعمل حربي في ساحة مواجهة بين جيشين نظاميين، ووصل الجنود تلك التروس إلى مدخل المصلى القبلي، ليلقوا الحجارة والمقذوفات داخله في وقت تولت فيه طواقم أخرى قص النوافذ وتحطيم الزخارف. عهد جديد من الاقتحامات تتيح أعمال التوسعة والتهويد الضخمة القائمة في باب المغاربة، أحد بوابات الأقصى الذي تسيطر عليه إسرائيل منذ عام 1967 بشكل كامل، خصوصاً بناء جسر خشبي بعد هدم ثلثه التاريخية في عام 7002، "دخولاً سلساً وسهلاً للآليات العسكرية الإسرائيلية". ويقول مسؤول ملف القدس في حركة "فتح"، حاتم عبد القادر، لـ "العربي الجديد"، إن "هدم التلة يمهد لإنشاء طريق وممر عسكري يسمح بدخول المدرعات ومئات المركبات العسكرية إلى باحات الأقصى بسهولة كبيرة، وما جرى اليوم (أمس) يثبت ما قلناه في هذا الصدد". المتابعون لما جرى أمس يشيرون إلى أن سلطات الاحتلال بدأت عهداً جديداً بما يتعلق باقتحاماتها، من خلال العنف المبالغ فيه تجاه الأقصى بجميع مبانيه ومنشآته، وأيضاً تجاه حراسه والمرابطين المعتكفين داخله، مما يعيد إلى الأذهان صوراً مؤلمة حدثت في الانتفاضتين الفلسطينيتين وما تخللها من مجازر بحق المصلين، كما يقول رئيس مجلس الأوقاف الإسلامية الأعلى، عبد العظيم سلهب، في حديث مع "العربي الجديد".

كاتب المقالة : محمد عبد ربه، نائلة خليل

تاريخ النشر : 29/09/2015

من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammedfarag.com